

وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في افريقيا

أبل نجارسوليدا *Abel Ngarsouledé

(abel.ngarsoulede@gmail.com)

كلية اللاهوت الإنجيلية "شالوم"، تشاد

Shalom Evangelical School of Theology (ESTES), Chad

ليس من الواضح ما إذا كانت العلمانية ظاهرة اجتماعية حصرية للغرب أم هي استثناء أوروبي للتدين العام في العالم. وفي الواقع، فإن التطورات الحديثة تقترح أن المجتمعات الإفريقية قد تتطور هي الأخرى نحو هذا الاتجاه. وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الاقتراحات الأخلاقية التي يمكن أن يقدمها اللاهوت للمجتمعات الإفريقية؟ وقبل الاستمرار في خط التفكير هذا، سيكون من المفيد تعريف معنى كلمة "العلمانية" من أجل توضيح فهمنا لهذا الموضوع الهام.

ومن منظور الفكر الغربي، فمصطلح العلمانية يحمل معنى مزدوج، وهو: الخسارة والتحرر.^١ يقول برايان ويلسون Bryan Wilson أن العلمانية تحدث عندما يفقد رجال الدين السيطرة على ميزاتهم properties ومواردهم، أو عندما ينخفض عدد رجال الدين أو القادة الدينيين. ويضيف أنه يمكن للمرء التحدث عن العلمانية عندما يعاني الدين من فقدان الحالة الاجتماعية، أو يُهجر نظامه الإيماني أو يتم تجاهل الممارسة الدينية.^٢ ويجادل يورجين هابرماس

* ترجمة سامح رهيف.

Originally published as: Abel Ngarsouledé, "Sociological and Theological Perspectives on Secularization in Africa," *Cairo Journal of Theology* 2 (2015): 88–102, <http://journal.etsc.org>.

- 1 Jean-Yves Lacoste, ed., *Dictionnaire critique de la théologie* (Paris : Quadrige/PUF, 2002), 1095.
- 2 Bryan R. Wilson, "Secularisation," in *Dictionary of Ethics, Theology and Society*, ed. Paul Barry Clarke and Andrew Lindzey, 747–750 (London/New York: Routledge, 1996).

Jürgen Habermas أنه يُمكن فهم العلمانية كتغيير عقلي نتيجة الحداثة، والذي قاد لرفض الفكر الغيبي.³ ومن وجهة النظر، يعرّف تشارلز تايلور Charles Taylor العلمانية على أنها إلغاء للدين من المجال العام.⁴

لقد أظهرت المناظرات الطويلة المتعلقة بالإيمان الديني في الغرب أن الكثيرين لديهم إيمانًا أكبر في المنطق البشري عن الإيمان بالله. وتركز هذه المناقشات على ميراث الكنيسة، خاصة في حالة انتقال ملكية أحد المؤسسات الدينية إلى الدولة أو إلى عامة الشعب. ولذلك، يجادل البعض أن العلمانية تشير إلى عملية تحولات مجتمعية من ترابط وثيق للدين والدولة إلى ما يقرب من حالة من الانفصال التام. وتركز المناقشات بالأخص على الوظيفة الاجتماعية للدين ومستقبله. يجادل سبيرنا ويلاند Sperna Weiland أن العلمانية، في حالة تعريفها بأنها التخلي عن الإله الثالوثي، عبارة عن تغيير أساسي في الخبرة الإنسانية.⁵ إنها تزيل مجالي الدين والغيبيات من الفكر والحياة البشرية.

ودون أن نعترم المساهمة في الجدل الدائر حول العلمانية في الغرب، يمكننا أن نؤكد أن أفريقيا أصبحت قارة علمانية مثلها مثل أوروبا. لقد قمتُ بتسليط الضوء، في هذا العمل، على التشابهات بين القارتين وعلى الجوانب الخاصة للعلمانية في أفريقيا. إن النهج المتبع في هذا النقاش أن هذا المقال سوف يتناول المقاطع التي تتأمل الواقع المشترك للعلمانية في أوروبا وأفريقيا، مع التركيز على القضايا الاجتماعية والدينية. وسوف يقترح هذا المقال استجابةً لاهوتية.

وبحسب أبحاثنا وتحليلاتنا، فإن العلمانية عبارة عن عملية ونتيجة على حد سواء. إنها تتعلق بجميع الديانات: المسيحية، والإسلام والديانات الأفريقية التقليدية. ولذا فنحن نعتقد أن العلمانية، والتي تُفهم على أنها تناقص تدريجي لسلطة وملاءمة الدين في المجتمع البشري، ظاهرة عالمية تختلف مظاهرها باختلاف أسبابها والسياق التي وُجدت فيه.

3 Jürgen Habermas and Joseph Ratzinger, *The Dialectics of Secularization: On Reason and Religion* (San Francisco: Ignatius Press, 2006), 43.

4 Charles Taylor, *A Secular Age* (Cambridge, MA: The Belknap Press of Harvard University Press, 2007), 424.

5 Jan Sperna Weiland, *New Ways in Theology*, trans. N. D. Smith (Dublin: Gill and McMillan, 1968), 8.

واقع العلمانية

جوانب العلمانية

في غرب أفريقيا، تُعرّف الأبحاث الحالية العلامات الرئيسية للعلمانية على أنه ما يلي:

١. **التحرر من الافتنان Disenchantment**. وهذا يشير إلى إزالة الغموض أو إمطة اللثام عن الكون، والمعتقدات، والمحرمات التقليدية المقدسة المقبولة من قبل الناس.

٢. **إزالة القداسة عن السلطة Desacralization of power**. وهي تعني إزالة العنصر الديني أو الفهم المقدس لشيء ما أو شخص ما. يظن كوامي بيدياكو Kwame Bediako أن المسيحية قد لعبت دورًا رئيسيًا في ظهور الحرية في العالم الحديث من خلال مواجهتها مع المعتقدات الأفريقية التقليدية.^٦ وبحسب بيدياكو، يُعتقد أن الأسلاف قد حافظوا على العلاقات الطيبة وعملوا على رفاهية المجتمع. لذا، فإن الزعماء التقليديين قد قاموا بوظيفة حاسمة في كونهم وسطاء بين الأسلاف والمجتمع. ويفترض أن سلطة الزعماء هي نفسها سلطة الأسلاف.^٧ وعندما تقوّض المسيحية من سلطتهم، فإنها تقوّض أيضًا من سلطة الدين.

٣. **التحرر من الدين Emancipation from religion**. تولّد العلمانية أساسًا منطقية تقوّض الضروريات التقليدية للإيمان والمعتقدات والأخلاق الفردية. والنتيجة هي تحرر أفراد وقطاعات من المجتمع من تأثير الدين ومن تأثير الهياكل التي تجسّد سلطته.

٤. **العلمانية Secularity**. هذه عملية تسمح فيها الطرق اللاهوتية للتفكير والوجود لظهور عادات عقلية ليس لها أي علاقة صريحة لما هو مقدس. العلمانية تعني أن الدين ليس له تأثير على مؤسسات ووظائف وقوانين الدولة.^٨

6 Kwame Bediako, "Le Christianisme et l'autorité en Afrique," March-April 1992, <http://www.cpjustice.org> (accessed December 5, 2014).

٧ المرجع السابق.

8 Cf. Henri Pena-Ruiz, *Histoire de la laïcité: Genèse de l'idéal*, Culture et société (Paris: Découvertes Gallimard, 2005), 18.

بجادل هنري بينا-رويز أن الجمع بين الله وقبصر عبارة عن ارتباط خطير فينغي وجود فصل بينهما. ويكتب: "في إعلان التحرر المتبادل للسلطة الدينية والسياسية، فيسمح الشخص

تقود العلمانية إلى تحرر الحياة العامة: الدولة والاقتصاد والأخلاق والعلم. وتقود إلى تحرر معتقدات الناس في مجالات الزواج، وتحديد النسل، والعادات الاجتماعية والشعور الشخصي بالهوية. وقد تقود أيضًا إلى المساواة بين الجنسين وفصل الكنيسة عن الدولة.

٥. التغيير الاجتماعي أو التحوّل الاجتماعي Social change or social transformation. يحدث هذا الأمر بطريقتين واللذان تميلان إلى تعزيز الفردية، بمعنى الاستقلال الشخصي. من المهم ملاحظة أمرين بشأن هذه الفكرة: (١) تبدو العلمانية أنها تأتي جنبًا إلى جنب مع الحداثة، والتي تشمل تأكيدًا على العقلانية والقيم الأخلاقية المستندة على التقاليد الاجتماعية؛ (٢) تؤدي العلمانية إلى تحول من الاهتمامات الروحية إلى الاهتمامات المادية.^٩

٦. تراجع الدين Decline of religion. يترافق مع هذا الأمر ارتفاع في التعددية، والانحلال، والخصخصة، واللامبالاة وعدم الإيمان. إن تراجع الدين يمكن أن يفهم على أنه فقدان سلطته. وتستند السلطة، في الأساس، على السيطرة التي يمتلكها شخصٌ ما على شخص آخر، أو على مجموعة من الناس في مجتمع معين أو على مؤسسة.^{١٠} إن السلطة هي السيطرة والقوة التي يكتسبها الناس نتيجةً لأنهم يعيشون حياة أخلاقية نموذجية، أو مكتسبين مهارات كمتخصصين أو مقدمين خدمات مرئية في مجتمع يُستثمرون فيه.

٧. تغيير محتوى العقيدة Altering the content of belief. يتعرّف بوبيرو Baubérot على هذا الشكل من العلمانية على أنه موجود وسط المفكرين المسيحيين الذين يعملون في مجالات المجتمع العلماني. ويميل مثل هؤلاء الناس إلى التغيير دون العودة إلى المعتقدات التقليدية وإلى إله المسيحية. ويميلون للعودة للمعتقدات التقليدية عندما يبدو على إله المسيحية أنه بطيء في الاستجابة. وتظهر حياتهم المزدوجة في التوتر الذي يحافظون عليه بين نظامي

العلماني بالتأكيد على حرية الأولى، لكن دون إلزام، وأن تكرر السلطة الثانية نفسها بالكامل لمصلحة الجميع، دون امتياز عام للمؤمنين أو الملحدين."

- 9 Jean-Pierre Bastian, ed., *La modernité religieuse en perspective comparée: Europe latine et Amérique latine* (Paris: Karthala, 2001), 309.
10 G. Glez, "Pouvoir temporel du pape," in *Dictionnaire de théologie catholique*, ed. A. Vacant and E. Mangenot, 12:2670–2772 (Paris: Librairie Latouzey & Ané, 1933).

أبل نجارسوليدا: وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في أفريقيا

الاعتقاد الخاصين بهم. والنتيجة هي أنهم على المدى الطويل يميلون إلى العلمانية بشكل أكبر.¹¹

٨. إعادة الإفتنان Re-enchantment. تُظهر الأبحاث أن عددًا كبيرًا من السكان يعودون إلى الدين، لكن ليس بالضرورة للمسيحية. إن ظهور ديانات جديدة وروحانيات جديدة وتضاعف لأماكن العبادة المؤقتة في مجتمعاتنا العلمانية هي نتاج لإعادة الإفتنان.

إن التحرر من الإفتنان، والتغيير أو التحول الاجتماعي، وإزالة القداسة عن السلطة، والعقلانية، والتعددية، والخصخصة، والانحلال واللامبالاة هي جوانب مشتركة للعلمانية في أفريقيا وفي الغرب. ويعتبر التحرر من الدين من المظاهر النموذجية للعلمانية في جميع الدول والقارات التي أُجري فيها البحث. وبحسب ميسي ميتوجو Messi Metogo، يمكن التعرّف على عدم الإيمان في أفريقيا وسط بعض الطبقات الاجتماعية – الأغنياء والمتعلمون بشكل جيد.¹² وتُعتبر كينيا هي الدولة الإفريقية الوحيدة التي تشترك مع الغرب في تراجع الدين. وبالإضافة للأمر المشترك بين القارتين، فإن إعادة الإفتنان وتغيير المعتقدات يظهران على أنهما جانبان متفردان للعلمانية في منطقة جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا.

ويمكن رؤية نتائج كل ما سبق من خلال ما يُسمى بتعزيز القيم الجديدة والتي قَبِلها العلمانيون. وبالإضافة لذلك، فإن هذه العناصر المميزة للعلمانية قد حدثت بسبب العديد من الحقائق المجردة والملموسة والتي تؤثر على الناس في جميع الطبقات الاجتماعية.

أسباب العلمانية

يتعرّف البحث على عدة عوامل للعلمانية ولضحاياها والتي توجد في الغرب وفي أفريقيا على حد سواء. وفي هذا العرض، سوف نُدرجهم ببساطة من أجل توعية الناس.

11 Cf. Jean Baubérot, "La sécularisation," in *Encyclopédie des religions*, ed. Giuseppe Annoscia, 219–222 (Paris : Encyclopaedia Universalis, 2002).

12 Eloi Messi Metogo, *Dieu peut-il mourir en Afrique? un Essai sur l'indifférence religieuse et l'incroyance en Afrique noire* (Paris/Yaoundé: Karthala/Presse de l'UCAC, 1997), 79.

إن أول أسباب العلمانية هي الديانة المسيحية. يلاحظ بعض الباحثين الأفارقة مثل دوبانو Dopanu، وتشيمبولو Tshimbulu ونجارسوليدا Ngarsouledé بالإضافة لبعض الغربيين أن المسيحية من بين الأسباب القديمة للعلمانية في أفريقيا.¹³

والسبب الثاني لهذا التطور الاجتماعي هو التوسع المدني، والمذكور في أبحاث شورتر Shorter، وأونيانشا Onyancha، ودوبانو، وميسي ميتوجو ونجارسوليدا. لقد أضافت المدن والعشوائيات في أفريقيا إلى الهجرة من الريف وفتحت الباب على مصارعيه أمام المادية وانتقال الأفكار العلمانية من خلال وسائل الاعلام الغربية ومن خلال تكنولوجيا المعلومات.¹⁴

والسبب الثالث الذي اكتشفه الباحثون للعلمانية في أفريقيا هو الحداثة. تقدم الحداثة تغييرات جذرية في حياة الشعوب الأفريقية. لقد ذكر كل من شورتر، وأونيانشا، ودوبانو، وميسي ميتوجو وتشيمبولو تحرر المجتمعات الأفريقية. وأضاف كل من دوبانو وتشيمبولو، في دراستهم لشعب اليوروبا Yoruba وشعوب افريقية أخرى تأثرت بالحداثة، تأثير العقلانية.¹⁵

ورابع أسباب تطور المجتمعات الأفريقية هو انتشار التعليم الغربي والذي يرشد ويعلم الأفارقة عن الحضارة الغربية وأيديولوجياتها. وهو يشكل عقلياً

- 13 Abiola T. Dopanu, "Secularization, Christianity and the African Religion in Yorubaland," in *AFER* vol. 48, no. 3 (2006): 146–147; Tshimbulu, "Laïcité et religion en Afrique," *Social Compass* vol. 47, no. 3 (2000): 331; "Enjeux théologiques de la sécularisation en Afrique subsaharienne: Une étude de cas de N'Djamena en République du Tchad" (doctoral thesis, Faculté de Théologie Évangélique de Bangui, 2012), 109–110.
- 14 Aylward Shorter and Edwin Onyancha, *Secularism in Africa; A Case Study: Nairobi City* (Nairobi: Paulines Publications Africa, 1997), 57–59; Dopanu, "Secularization, Christianity and the African Religion in Yorubaland," 146–147; Messi Metogo, *Dieu peut-il mourir en Afrique?* 12–13; Ngarsouledé, "Enjeux théologiques de la sécularisation en Afrique subsaharienne," 91.
- 15 Shorter and Onyancha, *Secularism in Africa*, 155; Dopanu, "Secularization, Christianity and the African Religion in Yorubaland," 145; Messi Metogo, *Dieu peut-il mourir en Afrique?* 12.

أبل نجارسوليدا: وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في أفريقيا

افريقية حديثة. ويلاحظ ميسي ميتوجو أن التعليم والاعلام الغربي قد نقلأ أشكالاً جديدة من المعرفة حتى للأميين من الشعب.^{١٦}

والسبب الخامس الذي ذكره البحث هو تأثير الإعلام والتقنيات الرقمية.^{١٧} وقد لاحظ شورتر وأونيانشا ونجارسوليدا، بالإضافة لملاحظات ميسي ميتوجو المذكورة أعلاه، نفس السبب في بحثهم. إن وسائل الإعلام المطبوعة والتلفزيون والفيديو والهاتف هي أشكال مؤثرة من الاتصالات استطاع هؤلاء الكُتَّاب التعرف عليها.^{١٨} من ناحية، يمكن لوسائل الإعلام أن يكون لها تأثيرٌ إيجابي لأنها تعزز التعليم وتوفر معلومات مفيدة. ومن الناحية أخرى، فإنها مضرّة لأنها تفسد الأخلاق وتعزز النظرة المادية. كما أنها تفكك الثقافة، وتقوّض الكنائس التقليدية وتعزز العداة تجاه المسيحية.^{١٩}

ويلاحظ شورتر وأونيانشا وميسي ميتوجو سببين إضافيين، وهما: الفقر وخرافة انسحاب الله – وتنتشر الفكرة الأخيرة في بعض الدول الافريقية. إن أنماط الاستقرار في المدن الافريقية، حيث يهاجر فقراء الريف إلى المناطق الحضرية الكبيرة، عادة ما لا تخفف حدة الفقر حيث يميل المهاجرون إلى إرسال الأموال إلى أقاربهم في قراهم.^{٢٠}

هؤلاء الأكثر انجذاباً للعلمانية

تميل العلمانية في افريقيا، كما في الغرب، للقبول بقوة بين المثقفين، والمسؤولين الحكوميين، ورجال الأعمال، والنخب الاجتماعية والشباب الذين يتواجهون مع الثقافة الغربية من خلال التعليم.

نذكر أثناء سردنا هؤلاء الأكثر عُرضة للعلمانية في افريقيا. هؤلاء هم البالغون الذين يعيشون في البلدان الفقيرة في وسط وغرب افريقيا، مثل قبيلة يوروبا بأكملها في نيجيريا والتي وقعت تحت تأثير العلمانية.^{٢١} في كثير من

16 Messi Metogo, *Dieu peut-il mourir en Afrique?* 12.

17 Ngarsouledé, "Enjeux théologiques de la sécularisation en Afrique subsaharienne," 97–102.

18 Shorter and Onyanha, *Secularism in Africa*, 73; Ngarsouledé, "Enjeux théologiques de la sécularisation en Afrique subsaharienne," 97–102.

١٩ المرجع السابق، ٣٨–٣٩، ٦١–٦٤.

٢٠ المرجع السابق، ٣٢، ٥٧–٧٠.

21 Shorter and Onyanha, *Secularism in Africa*, 38–39, 61–64.

الأحيان، تقود الظروف الاجتماعية المزرية لبعض الأسر الأفريقية إلى العلمانية، أو التمرد على الله أو عدم الإيمان. وبحسب تشمبولو، فإن المجتمعات الأفريقية قد تحررت بشكل عام من سلطة الدين.^{٢٢} ويشير إلى الديانات الأفريقية التقليدية، والاقتصاد والسياسة باعتبارها مجالات الحياة الاجتماعية التي تسود فيها العلمانية بشكل واضح.^{٢٣} وبالطبع، فإن أسباب العلمانية المذكورة أعلاه ليست بدون نتائج اجتماعية ولاهوتية.

المنظوران الاجتماعي واللاهوتي نحو العلمانية

المنظور الاجتماعي للعلمانية

يتضح التأثير المدمر للعلمانية في الغرب في تقويض الأسس الأخلاقية للمجتمع، وتراجع الدين، وصعود العقلانية وصعود نظرة عالمية مؤسسة على العلم. وتميل هذه الأمور إلى تعزيز البحث عن استقلال شخصي وجماعي والذي يسمح بتواجد الدين بشكل محدود أو معدوم. وفي الواقع، فإن هذه الأمور تؤدي إلى محاولة مُهدرة للاستقلال عن الله. وفي نهاية المطاف، فإن هذا الأمر غير مرضٍ للكثيرين لأن عطش البشرية نحو الحرية المطلقة لا يتفق مع حاجتها للعثور على تميم في هدف متسامي.

درس ماكس فيبر Max Weber، مُقترَبًا من المشكلة من منظور اجتماعي، العلاقة بين الأفكار والحياة الاجتماعية-الاقتصادية للشعوب – وهي، علاقة الدين بالاقتصاد وبالتقسيم الطبقي الاجتماعي. وفي رأيه، إن المعتقدات تحدد الأخلاقيات، والتي لها تأثير مباشر على الاقتصاد والحياة الاجتماعية.^{٢٤} ويؤكد دانيال هيرفيه-ليجير Danièle Hervieu-Léger على هذه العلاقة، مشيرًا إلى أن الإيمان الجمعي في القيم الفينة المثمرة يقود المجتمع البشري إلى طريق مسدود.^{٢٥} وقد أنتجت الحداثة مع ابنة زوجها، العلمانية، أزمة في

22 Tshimbulu, "Laïcité et religion en Afrique," 336.

٢٣ المرجع السابق.

24 Max Weber, *L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme*, Agora 6, Paris: Plon, 1964), 24.

25 Danièle Hervieu-Léger, "Religion, modernité et sécularisation," in *Vers un nouveau christianisme?* ed. Danièle Hervieu-Léger and Fran-

أبل نجارسوليدا: وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في أفريقيا

المجتمع البشري: وهي الحياة من دون الله. وعلى الرغم من أن الرغبة في الاستقلال البشري قد تؤدي إلى الحرية، إلا أنها غالبًا ما تأتي على حساب الاغتراب واليأس.

عبر العديد من الكُتّاب، في أفريقيا، عن هذه المشكلة. يلاحظ شورتر واونيانشا أن القيم العلمانية في هذه القارة تؤثر بعمق على جميع مجالات الحياة والمجتمع. ومن الغريب في الأمر، أن العدد المتزايد للمسيحيين لا يمنع التطور المتزامن للعلمانية الوظيفية.^{٢٦} ويؤكد ميسي ميتوجو هذه الفكرة في ملاحظته بأن المجتمعات الأفريقية المعاصرة تتسم باللامبالاة الدينية وبعدم الإيمان، رغم أن شعوب هذه المجتمعات لديهم شعور طبيعي في أعماقهم بوجود إله أسمى.^{٢٧} وبحسب بينو فان دين تورين Benno van den Toren، لقد تم إزالة القداسة عن المناطق والمحرمات المقدسة ثقافيًا بالأمس في أفريقيا، مما قدم إمكانية للوصول إلى مناطق كان من الوقح أن يتم استكشافها في السابق.^{٢٨} وعلاوة على ذلك، فإن المسيحيين، على مستوى فردي، عادةً ما يتصرفون وكأنه لا يوجد لديهم مرجع إلهي أو يسارعون إلى اللجوء إلى آلهتهم القبلية في حالة حدوث أزمة. وأشار كوامي بيدياكو Kwame Bediako أن المسيحية فقدت الكثير من وظيفتها الاجتماعية في سياق استقلال أفريقيا.^{٢٩}

إن التحرر من الدين في كل من الغرب وأفريقيا هو صيحة العصر. ومن الواضح أن حياة الأفراد، وقطاعات من المجتمع ومجتمعات بالكامل قد أصبحت خارج تأثير الدين والسلطة الدينية.

ما هو الأمور الموضوعة على المحك من الناحية اللاهوتية؟

أدت الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، في أفريقيا، إلى تراجع الشعور الديني في قلوب الشعوب. ويستخدم الناس الآن لغة تعكس عدم الإيمان

çois Champion, *Sciences Humaines et Religions* (Paris: Cerf, 1986), 216.

26 Shorter and Onyancha, *Secularism in Africa*, 29, 38–39, 157.

27 Messi Metogo, *Dieu peut-il mourir en Afrique?* 109.

28 Van den Toren, “Secularisation in Africa: A Challenge for the Churches,” 7–9.

29 Kwame Bediako, *Christianity in Africa: The Renewal of a Non-Western Religion* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1995), 186.

بشكل عام. فشاعت بعض المصطلحات مثل: "صمت الله"، "عجز الله"، "لامبالاة الله"، "ظلم الله" و "حب الله الجزئي". وتغطي العلمانية في هذه القارة الجوانب الثقافية والأخلاقية والاجتماعية للمجتمع المعاصر. وهذا يشمل مجال الغيبيات، والذي يواجه البشر بأسئلة جوهرية. وتظهر تأثيرات العلمانية في الجيل الصاعد، بالأخص وسط الطلبة والمتقنين ورجال الأعمال والنساء. وتشتمل التأثيرات اللاهوتية على ما يلي:

١. العودة إلى الله عند فشل جميع المجهودات البشرية:^{٣٠} وفي هذا السياق، يمكن للمرء ملاحظة نوع من النسبية الدينية في أن المزاعم العقائدية الحالية لديها تأثير أقل على حياة المسيحيين.^{٣١} قال الكاردينال راتزينجر Ratzinger (والذي أصبح البابا بندكتوس السادس عشر لاحقاً) في الجمعية العامة للمجلس البابوي للثقافة: "تغزو العلمانية كل جانب من جوانب الحياة اليومية وتولد تطوراً في العقلية البشرية بحيث يصبح الله غائباً عن الوجود، جزئياً أو كلياً، في الوعي البشري."^{٣٢} هذه العلمانية لا تمثل تهديداً خارجياً فحسب على المؤمنين. لقد أصبح من الواضح للبعض أنه تهديدٌ موجودٌ داخل الكنيسة أيضاً. وأضاف راتزينجر: "إنها تشوّه الإيمان المسيحي الداخلي والعميق، وبالتالي، تشوّه نمط الحياة والسلوك اليومي للمؤمنين."^{٣٣}

٢. إن التوتر الداخلي في حياة المتقنين والنخب الاجتماعية والمسؤولين الحكوميين هو تأثير لاهوتي آخر. إن مساهمة كارل جريبي Karl Grebe وويلفورد فون Wilfred Fon تسلط الضوء بشكل أكبر على هذه النقطة. بالنسبة إليهما، فإن من يعملون في المجال العام عالقون بشكل غير مريح بين الممارسات الكنسية والتقليدية. لقد نشأ غالبية المسيحيين الأفارقة في ثقافات ترتبط بشكل لصيق بديانة مجموعتهم العرقية.^{٣٤} ويمكن وصف المنطق وراء هذه الممارسات بأنها وقحة، لكنها مقنعة. وبالتالي، فإن العديد من المسيحيين

30 Messi Metogo, *Dieu peut-il mourir en Afrique?* 39.

٣١ المرجع السابق.

32 Joseph Ratzinger (Benedict XVI), "La sécularisation des esprits," speech given March 8, 2008, <http://www.cerclegustavethibon.hautetfort.com/archive/2008/03/10/la-secularisation-des-esprits.html> (accessed March 24, 2008).

٣٣ المرجع السابق.

34 Karl Grebe and Wilfred Fon, *Religion traditionnelle africaine et relation d'aide* (Abidjan : CPE, 2000), 10–12.

أبل نجارسوليدا: وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في أفريقيا

الأفارقة يستحدثون حياة مزدوجة. إنهم ملتزمون بشكل جوهري بالمسيحية لكنهم يخلقون مكافئات ديناميكية للإيمان المسيحي عندما يجتازون بصعوبات. ويعودون بسرعة للديانات الأفريقية التقليدية بسبب قوة جذب هوية جماعتهم. وكما يقول جان بوبيروت Jean Baubérot، كما أن المحكمة تصبح غير فعالة عندما تغيب عنها العدالة، كذلك فإن سلطة الدين تُفقد عندما يتم التشكيك في العقائد على يد أشخاص من الخارج أو على يد علمانيين من داخل جدرانها.³⁵ ونتيجة لذلك، أصبح تراجع الممارسات الدينية، وأزمة المهنة وتآكل الأخلاق من العوامل التي تؤدي لتراجع سلطة الدين.

3. التحرر من سلطة الدين وسلطة الله. وجد الباحثون أن العطش البشري للحرية يجذب الناس لتحرير أنفسهم من جميع أشكال السلطة، بالأخص من سلطة الله حيث أن كلمته تقيد حريتهم.³⁶ وبحسب مارك شيفز Mark Shaves، فإن السلطة الدينية عبارة عن هيكل اجتماعي يسعى لفرض لغته لإجبار الأفراد على رفع سيطرتهم على ممتلكات مادية ورغبات أخرى في قلوبهم. وهذا النوع من السلطة الدينية هو بالتحديد ما يرغب العلمانيون من رجال ونساء في التحرر منه. وبالتالي، وفي الظروف المناسبة، قد يصبح الإيمان بالله أمرًا عفا عليه الزمن.³⁷

4. التعددية الدينية التنافسية في أفريقيا. إن التعددية الدينية تميّز العلمانية في أفريقيا. لاحظ ستيف بروس Steve Bruce نفس الظاهرة في السياق الغربي حيث تم استبدال المعتقدات التقليدية، والتي تم اعتبارها أمورًا مسلمًا بها على مدى طويل، بالتزام حماسي من الشعب نحو سلسلة من الطوائف التنافسية.³⁸ وبالنسبة له، فإن هذا الفوران الديني الجديد يؤدي إلى تراجع للدين. ولا تستطيع المسيحية أن تدافع عن مصداقيتها الفكرية في مواجهة الابتكارات الاجتماعية والأفكار العلمانية. ونتيجة لذلك، فالحال في أفريقيا يشبه الحال في

35 Jean Baubérot, *Vers un nouveau pacte laïque?* (Paris: Seuil, 1988), 40.

36 Ngarsouledé, "Enjeux théologiques de la sécularisation en Afrique subsaharienne," 141.

37 Hans Blumenberg, cited in : Rosino Gibellini, *Panorama de la théologie au XXe siècle* (Paris: Cerf, 2004), 155.

38 Steve Bruce, *Religion in Modern World: From Cathedrals to Cults* (Oxford: Oxford University Press, 1996), 4.

الغرب، فالناس يشتركون في المؤسسات الدينية من منطلق العادة بدلاً من الالتزام بتنفيذ إرادة الله.

نستنتج أن العلمانية تظهر على أنها محررة ومُستعبدة في ذات الوقت. فهي من ناحية، تعلم وتوظف البشر على إمكانيات التحرر الذاتي، لتسلط للضوء على جامعاتهم الفكرية ومهاراتهم العملية؛ فهي تُظهر لهم، على سبيل المثال، كيفية السيطرة على البيئة المحيطة بهم. ومن ناحية أخرى، فهي تُلهمهم على التفكير والسلوك في العالم بطريقة ملحدة. إن العلمانية عبارة عن سيد جديد وقوي يزيل الدين من المجتمع بلا هوادة. والنتيجة هي أن المشاعر الدينية سريعاً ما سوف تتآكل في المجتمعات الأفريقية بنفس القدر الذي حدث في الغرب. بالنظر لما سبق، كيف لنا أن نتصرّف، وما هي نوعية الاستجابة اللاهوتية التي يجب أن نقدمها أمام هذا التطور في المجتمعات الأفريقية؟

الاستجابة اللاهوتية للعلمانية

تطبيق النموذج الثالوثي

اخترنا النهج الثالوثي لمواجهة مشكلة العلمانية. إن مشاركة الإله الثالوثي في الجانب العلماني من البشرية يتضمن تأثيرات أخلاقية ينبغي أخذها في الاعتبار. لأنه منذ البداية كانت مشيئة الله أنه ينبغي على البشر أن يعيشوا في مجتمع، وفي تجانس اجتماعي وفي مطابقة مع إرادته. إن الفردية أو اللامبالاة الدينية أو خصخصة الدين هي جميعها انحرافات عن خطة الخالق. وبينما يمتلك الملوك الدنيويين سلطة محدودة على شعوبهم، فاله المسيحية كأي القوة وكأي الحضور حاضر في خليقته ويسود عليها. فهو يشترك في حياتهم دون أن يوافق على خطاياهم. وهو يوجّه ويرشد ويدافع عن مصالحهم في مواجهة العدو ويُعدّهم بتدابير جوهرية. وبنفس الطريقة، فإن المسيحيين الأفارقة مدعون أن يشتركوا في مجتمعاتهم دون المساومة في التزامهم نحو الله. وفي الواقع، إنهم مدعون لأن يتواجدوا في العالم دون أن يصبحوا عالميين. إن المسيحية في افريقيا مدعوة لأن تواجه عدة تحديات في نفس الوقت. وهذا يتضمن ثلاثة أمور:

١. إعادة التفكير في طرق توصيل الإنجيل في افريقيا وذلك لتقديم مواجهة فعّالة لمشكلة العلمانية في سياق اجتماعي سريع التغيّر.

أبل نجارسوليدا: وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في أفريقيا

٢. العمل على تحوّل قارة أفريقيا على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في سياق تصاعد القيم العلمانية.^{٣٩}
 ٣. إعادة ترسيخ السلطة الدينية كيما تصبح فعّالة في المساعدة على خلق مجتمعات صحيّة، وأثناء ذلك، تقدم معنًى جديداً وقيمةً جديدةً للسياسة.
- وبما أن الكنيسة في أفريقيا مدعوّة لمشابهاة عمل يسوع المسيح، فينبغي عليها أن تسعى لتجسيد حقائق الإنجيل في بيئة علمانية.

التزام الكنيسة

وكيما تصبح الكنيسة أكثر فاعلية في عالم علماني، ينبغي عليها أن تركز على نشاطين، وهما: ترجمة الكتاب المقدس وإعادة التأكيد على الموضوعات اللاهوتية الملائمة للسياق الأفريقي.

ترجمة الكتاب المقدس. يتفق المفكرون المسيحيون الأفارقة مع لامين سانيه Lamin Sanneh بشأن الاحتياج لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية، لأن الكتاب المقدس مصيري في تحوّل الثقافات. وتسعى الكنيسة بترجمتها للكتاب المقدس إلى اللغات المحلية أن تقدم رسالة مفهومة للقراء والمستمعين بلغة قريبة لقلوبهم وذلك لكي تحقق استجابة إيمانية. إن الهدف النهائي لهذه المهمة هو ملامسة وتغيير حياة الناس وذلك من أجل جلبهم لملكوت الله. تحمل عملية ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية، كاستجابة للعلمانية، على ميزتين محتملتين:

١. تعزيز اكتساب حياة الأفراد وثقافتهم بثقافة الإنجيل. فهذا يقَدّم احتمالية وصوله للقراء في أعرق مستوى ممكن، لملامسة الأبدية التي وضعها الله في قلوبهم.^{٤٠}
٢. السماح للأفارقة باستخدام كلمة الله الموجودة بالفعل في لغاتهم، وبالتالي تجعل الأمر واضحاً أن الله كان موجوداً مع شعوبهم حتى قبل مجيء المرسلين.^{٤١}

39 Bediako, *Theology and Identity: The Impact of Culture upon Christian Thought in the Second Century and Modern Africa* (Oxford: Regnum Books, 1992), 15–18.

40 Lamin Sanneh, *Encountering the West: Christianity and the Global Cultural Process; The African Dimension* (Maryknoll: Orbis Books, 1993), 86.

ونحن نتفق مع سانيه أن الكنائس المعاصرة ينبغي أن تتعلم من خبرة كنائس شمال أفريقيا في القرون التي ظهر فيها الإسلام لأول مرة في القارة. لقد اختلفت تلك الكنائس تمامًا عندما تواجهت مع تحدي الدين الجديد. وعادةً ما يلاحظ المؤرخون أن عدم وجود كتب مقدسة باللغات العامية لتلك الكنائس كان عاملاً مساعداً في زوالها.

إعادة التأكيد على الموضوعات اللاهوتية الملائمة. وكما تستطيع الكنائس المعاصرة أن تستجيب للعلمانية ينبغي عليهم دراسة الثقافات والتقاليد المحلية بشكل دقيق، وذلك في سياق الحداثة. وفي قيامهم بذلك سوف يتمكنون من توصيل رسالة الإنجيل بشكل أفضل وبطرق ملائمة للأفارقة.^{٤٢} كذلك فإن احتياج الكنيسة لإعادة التأكيد على بعض الموضوعات اللاهوتية الجوهرية يحمل نفس القدر من الأهمية وذلك من أجل مواجهة العلمانية والاستمرار بشكل ملائم لمشكلات عامة الشعب. وتتضمن الموضوعات التي ينبغي تسليط الضوء عليها ما يلي:

١. **محاياة الله** The immanence of God. يظهر وعد يسوع المسيح بحضوره المستمر مع الكنيسة بأنه غير فعال في الوضع الحالي للشعب الافريقي. فبينما يزداد الشعور ببُعد الله، يرتفع الشك لا محالة بشأن ملائمته في الحياة والمجتمع الحديث.

٢. **عمل الروح القدس** The work of the Holy Spirit. بينما يظهر أن دور الروح القدس أصبح أقل ملائمة في الحياة البشرية، فإن الأفارقة يستجيبون بسهولة أكبر لأصواتٍ أخرى. وبالنسبة للكثيرين، فإن أرواح الأسلاف تبدو أقرب وأكثر حساسية لمعاناة الشعب عن الروح القدس. وتؤدي هذه المعتقدات لأن يصمّ الشعب أذانه تماماً أمام صوت روح الله.

٣. **الكتاب المقدس** Scripture. يتملّص الناس بإصرارٍ من سلطة الله في الكتاب المقدس أمام صعوبات الواقع اليومي ويقبلون سلطات أخرى. ولا يقبل الواقع المعاصر تفرّد الكتاب المقدس ولا تفسيره الحرفي. وبالتالي، تتضاءل سلطة الكتاب المقدس بشكل أكبر في القلوب والضمائر.

٤١ المرجع السابق.

42 Kwame Bediako, "Le Christianisme et l'autorité en Afrique."

أبل نجارسوليدا: وجهات نظر اجتماعية ولاهوتية عن العلمانية في أفريقيا

٤. الخلاص Salvation. يطرح الكثيرون سؤال الخلاص من جانبيه الفوري والأخروي. وهذا يؤثر على أساسيات الإيمان بالله ويؤدي إلى تعرّف الناس على السعي وراء الكسب المادي المباشر باعتباره استخدامًا أفضل للوقت والجهد.

٥. الكنيسة كمؤسسة روحية The Church as a spiritual institution. قد تفقد الكنيسة هويتها كجسد المسيح أثناء استجابتها الإيجابية للظروف الاجتماعية-الاقتصادية للشعوب المحتاجة. فعندما ينظر الناس للكنيسة كمؤسسة توفر الخيرات والخدمات في المقام الأول، فقد يتبع الناس يسوع لمجرد الحصول على "الأرغفة والسمكات" بدلاً من الرغبة في التمتع بشركة حقيقية مع الله.

٦. الإنجيل الاجتماعي The social gospel. رغم خطورة التركيز المفرط على الاهتمامات الاجتماعية، إلا أنه ينبغي على الكنيسة أن تسعى لتلبية احتياجات الناس. وهذا ينطبق بشكل خاص على أفريقيا حيث تتسم الحياة بالفقر، وهجرة أعداد كبيرة من المناطق الريفية إلى الحضرية، والعنف وسط الشباب، وتجنيد الأطفال، وانتشار أطفال الشوارع، وإدمان الكحوليات وانتشار الأمراض المستعصية من خلال الدعارة.

٧. القيادة Leadership. يشير العطش للقوة والفساد السائد للقادة الأفارقة أنهم لم يتطبّعوا بالقيم المسيحية. ولهذا، فإن تعليم الكنيسة عن القيادة الخادمة بالخضوع لله هي أحد الأعمال الهامة للكنيسة. وكما يكتب بيدياكو: "قد لا يكون للمسيحية الأفريقية [مهمة] سياسية في المجتمعات الأفريقية أعظم من مساندة هذا التحول في المنظور."^{٤٣}

ختامًا أقول، إن الحداثة حقيبةً مختلطة. قد تعني صعودًا للعلمانية يقوّض تأثير وسلطة الدين ويقود إلى كارثة أخلاقية، لكنها قد تعني أيضًا سيادة التعليم والعلم والتكنولوجيا والتوسع العام للأفاق الإنسانية. والتحدي الكبير للكنيسة اليوم في منطقة جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا هو استيعاب الأفكار والقوى الجديدة التي أفرزت في العالم الحديث وذلك من أجل تسخيرها لوجهة نظر مسيحية، وجهة نظر مُطمئننة للحياة وللروح. ويعتمد مصير القارة على هذا الأمر.